العلاقات الخارجية في عهد المعتصم

العلاقة مع البيزنطيين

توقف القتال بين المسلمين والبيزنطيين في السنوات الاولى لخلافة المعتصم نتيجة انهماك الخلافة بالقضاء على ثورة بابك الخرمي . وفي المقابل فقد انصرف الامبراطور البيزنطي ثيوفيل الى التخطيط لاستعادة جزيرة صقلية من ايدي المسلمين فشهدت مناطق الحدود هدوءا يكاد يكون تاما . الا انه ما كاد يمضي على خلافة المعتصم اربعة اعوام حتى رأى ثيوفيل ان يعود الى قتال المسلمين على الحدود الشرقية لأمبراطوريته وقد شجعه على ذلك نجاح المفاوضات التي اجراها مع بابك الذي وعده باعتناق المسيحية مقابل مساعدته في قتالهم وظنا منه ان باستطاعته احراز نصر عسكري عليهم فأغار على منطقة اعالي الفرات ليؤمن اتصالا مع الخرمية في ارمينيا واذربيجان واستولى في طريقه على زبطرة مسقط رأس والدة الخليفة واسر من فيها من المسلمين ومثل بهم وسبى المسلمات كما هاجم سميساط وملطية واحرقها .

اعتبر المعتصم هذه الغارة تحديا شخصيا له من قبل ان تكون تحديا للخلافة العباسية فقبل التحدي وعزم ان يثأر لزبطرة . فما كاد ينتهي من اخماد ثورة بابك الخرمي في عام (223 هـ / 838 م) حتى اعد جيشا كثيفا بهدف توجيه ضربة قاصمة للامبراطورية تقضي بدورها على هيبة الامبراطور . وخرج هو على راس هذا الجيش متجها صوب عمورية مسقط رأس اسرة ثيوفيل عازما على تدميرها . والجدير بالذكر ان الاستيلاء على عمورية يعتبر خطوة للوصول الى القسطنطينية .

غادر الخليفة سامراء وهو على تعبئة وجعل انقرة اول هدف للحملة فعين اشناس التركي قائدا للمقدمة ، وايتاخ قائدا للميمنة ، وجعفر بن دينار على الميسرة ، وعجيف بن عنبسة على القلب ، وشارك الافشين في الحملة على رأس فرقة عسكرية وكتب على الوية الجيش وتروسة (عمورية) وقرر دخول الاراضي البيزنطية من ثلاثة محاور . فتوجه جيش الشرق بقيادة الافشين نحو مدينة سروج ليدخل الاراضي البيزنطية في يوم محدد عن طريق درب الحدث اما جيش الغرب بقيادة اشناس فكان عليه ان يتقدم عبر جبال طوروس الى مدينة الصفصاف الواقعة قرب قلعة لؤلؤة على ان يلتقي بجيش الشرق في سهل انقرة . وقاد الخليفة القسم الثالث من الجيش وزحف مباشرة نحو انقرة . ورسم الخليفة خطة تكتيكية على ان تجتمع الاقسام الثلاثة عند سهل انقرة لمهاجمة المدينة .

وغادر القسطنطينية في هذه الأثناء، الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل بعدما علم بماوضعه الخليفة من خطط عن أنقرة وعمورية، وتوقف في دوريليوم على بعد ثلاثة أيام من عمورية وأمر بتحصين هذه الاخيرة، وبعث الإمدادات إليها. أما الخطة القتالية التي وضعها فكانت تقضي بمهاجمة القوات الإسلامية أثناء زحفها نحو الشمال باتجاه أنقرة، ومن أجل ذلك عسكر على نهر هاليس، واستعد

لعبوره ليفاجيء المسلمين ظناً منه بأن هذه القوات سوف تجتاز درب كيليكيا في طريقها إلى أنقرة، ولم يكن يعلم شيئاً عن جيش الافشين .

ثم حدث أن أصدر الخليفة أوامره بالتوقف ريثما يستطلع أخبار الجيش البيزنطى، وبعث برسالة إلى أشناس وكان وقتئذ قد بلغ مرج الأسقف القريب من لؤلؤة يبلغه بتطورات الموقف العسكري، ويأمره بالتوقف حتى توافيه الساقة لأنها تحمل العتاد الحربي .

ويبدو أن ثيوفيل علم بتقدم جيش الشرق بقيادة الأفشين فغيّر خطته، واضطر أن يقسم جيشه إلى قسمين، ترأس هو القسم الأول ليواجه الأفشين، في حين ترك القسم الثاني من الجيش للتصدي لجيش الخليفة حتى يمنعه من التقدم، محاولاً بذلك منع التقاء الجيشين الإسلاميين".

ولما وقف المعتصم على خطة ثيوفيل أراد أن ينذر الأفشين بمسير الأمبراطور إليه. لكن الأفشين كان قد توغل في آسيا الصغرى، فلم يبلغه أي كتاب . أما أشناس فقد تابع زحفه باتجاه أنقرة وسار الخليفة وراءه، بينهما مسيرة يوم واحد دون أن يعلم شيئاً عن مصير الأفشين .

وفي الوقت الذي كان فيه جيش الخليفة يقترب من أنقرة، كان الأفشين يجتاز سيواس إلى توقات، فتحتم عليه ، عند ذاك ، أن يشتبك في معركة مع الأمبراطور. ابتدأت المعركة في ساعات الصباح الأولى من يوم الخامس والعشرين من (شهر شعبان عام ٢٢٣ هـ /شهر تموز عام ٨٣٨ م)، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا نصراً أولياً إلا أن فرسان المسلمين حوّلوا الموقف من الهزيمة إلى النصر. ووقع الاضطراب في صفوف البيزنطيين عندما شاع خبر بأن الأمبراطور لقي مصرعه والمعركة دائرة،

فانهزم البيزنطيون وهربوا لا يلوون على شيء. وترك الأمبراطور ساحة المعركة بعد قليل من العناء، وسار حتى بلغ مدينة خليوكومن، شمالي أماسيا حيث جمع فلول جيشه الهارب، وعاد إلى معسكره على نهر هاليس، وأرسل أحد خصيانه إلى أنقرة للدفاع عنها لكنه وصل بعد فوات الأوان. ذلك أنه حدث أن اجتمعت الجيوش الإسلامية المتفرقة في سهل أنقرة وأنزلوا بالمدينة الخراب والدمار.

لم يسع ثيوفيل بعد هزيمته وسقوط أنقرة، إلا أن يرسل إلى المعتصم يطلب الصلح معتذراً عن مذابح زبطرة ومتعهداً بإعادة بنائها وإعادة السكان إليها، وإطلاق سراح من عنده من الأسرى المسلمين، إلا أن الخليفة رفض عرض الصلح، وتابع زحفه باتجاه عمورية . أما ثيوفيل فقد توجه نحو دوريليوم منتظرا ما سوف يحل بعمورية من المصير المحتوم .

وتقدم الخليفة باتجاه عمورية بعد تدمير أنقرة فوصلها في سبعة أيام وشرع في حصارها، وعلى الرغم من مناعتها وحصانتها إلا أنها استسلمت في السابع عشر من (شهر رمضان عام ٢٢٣ هـ/ شهر آب عام ٨٣٨ م) بعد أسبوعين من الحصار فأسر المسلمون كثيراً من أهلها وغنموا غنائم وفيرة، وهدم المعتصم أسوارها، وأمر ، بالمقابل، بترميم زبطرة وتحصينها .

كشفت حملة المعتصم عن ضعف الأمبراطورية البيزنطية ، مما شجع الخليفة على مواصلة زحه باتجاء القسطنطينية، التي باتت الطريق إليها مفتوحة، إلا أنه اضطر العودة إلى العراق لأنه كشف مؤامرة دبرهما الجند لصالح العباس .

وفي مطلق الأحوال، تبقى حملة المعتصم الى بلاد البيزنطيين مميزة عن الحملات السابقة التي كانت تستهدف الأطراف. فعمورية تقع بعيداً في جوف آسيا الصغرى، إذ اعتبرها الطبري «من أعظم ما يُقصد له من بلاد الروم».

وما ترتب على غزو المعتصم من كوارث في آسيا الصغرى، وما جرى من تقدم مسلمي إفريقية في جزيرة صقلية، وما ألحقه المسلمون في جزيرة كريت بالأمبراطورية من هزائم، كل ذلك أقنع ثيوفيل بأن الأمبراطورية عاجزة عن مواجهة قوة المسلمين المتزايدة، فمال إلى الصلح.

وأخيراً تقررت الهدنة بين الطرفين في عام (٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م). ثم حدث أن توفي كل من المعتصم وثيوفيل في العام نفسه. فتولى الخلافة الواثق، في حين تولى عرش الأمبراطورية البيزنطية ميخائيل الثالث بوصاية والدته تيودور.

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم في اليوم الأول من(شهر محرم عام ٢٢٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام 841 م) فأصيب، عقب ذلك، بالمرض الذي قضى عليه لثمان ليالي مضت من شهر ربيع الأول أواخر شهر كانون الأول من العام الميلادي المذكور وكان قد ولى عهده ابنه هارون، ولم يشرك معه في الولاية أحد .